مقالات ٢٠٢٤

نشرت في جريدة الأهرام المصرية

أ.د. محمد الخشت

أستاذ الفلسفة ورئيس جامعة االقاهرة

www.elkhosht.com

الفهرس

يناير ٢٠٢٤

إجابة العقل عن معضلات موسى ١ ---------- ٧ يناير ٢٠٢٤

مارس ٢٠٢٤

إجابة العقل عن معضلات موسى ٢ ---------- ٢٤ مارس ٢٠٢٤

أبريل ٢٠٢٤

إجابة العقل عن معضلات موسى ٣ ---------- ٢١ أبريل ٢٠٢٤

مايو ٢٠٢٤

إجابة العقل عن معضلات موسى (٤) ---------- ٥ مايو ٢٠٢٤

إجابة العقل عن معضلات موسى ١

الأحد ٧ يناير ٢٠٢٤ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

انتهى المقال السابق بسؤال: ماذا كانت إجابة العقل التعليلى عن المعضلات التى أثارها موسى فى مواجهة العبد الصالح؟

وهذا السؤال كأنه ينطلق من مسلمة، وهى أن جميع أفعال العبد الصالح يمكن فهمها فى حدود العقل، وليست هى بخوارق تجاوز معايير البرهان التعليلي.

نعم، إن «العلم اللدني» خارج نطاق الأخذ بالظاهر والمحسوس، لكنه ليس خارج نطاق العقل. وهذا شأن التفكير العقلى الذى لا يقف بطبيعته عند حدود الظاهر ولا يقف عند حدود المحسوس المباشر. إن هذه إحدى الخصائص التى تميز التفكير العقلى فى انتقاله من «المحسوس» إلى «اللامحسوس»، مثلما يحدث فى علوم الرياضيات التى تصعد فوق المحسوسات إلى عالم المجرد فتدرك الحقيقة فى كليتها وشمولها. إن الصعود إلى وراء عالم الحس، والعبور من الجزئى إلى الكلي، والقفز إلى عالم ما فوق الحس المباشر، تلك القفزة التى يقوم بها الإنسان عندما يمزق سلسلة الحس- هى الفكر ولا شيء غير الفكر. وهذا ما يمكن ترجمته فى الدين بذلك الصعود من الأشياء المحسوسة إلى مبدع الأشياء (اللامحسوس)، كما يمكن ترجمته فى مواقف العبد الصالح بذلك الصعود من عالم الظاهر إلى عالم الأقدار.

وبالنظر إلى الآيات القرآنية التى تحدثت عن مواقف العبد الصالح وعدم فهم موسى لها، وتفسيرها فى حدود تفسير القرآن بالقرآن، مع عدم الرجوع إلى الأساطير التى تمت روايتها خارج النص القرآني، سوف نجد أنه فى الوقت الذى كان فيه موسى يأخذ بالظاهر والمحسوس والمباشر فى تلك المرحلة من حياته، كان العبد الصالح له منهج آخر، أوصله إلى العلم اللدنى الذى يأخذ الأمور فى شمولها وليس فى ظاهرها، والذى لا يقف عند حدود المحسوس، بل يتعمق فى الأسباب غير المرئية، التى تقف وراء الظواهر. وهنا نتذكر أحد عباقرة العصور، أعنى شكسبير، عندما قال:«لا ترى كل ما تراه عينك ولا تسمع كل ما تسمعه أذنك»؛ فهناك الإدراك العقلى الذى يحلل ما يأتى من الحواس ويضعه مع بقية المعطيات على طريق التصور الصحيح.

بعد هذا التمهيد الضروري، نعود لمعضلات موسى لنرى الفرق بين الذى يأخذ بالظاهر (موسى) والذى يأخذ بالباطن (العبد العالم)، الفرق بين من يأخذ بالحواس وحدها ومن يأخذ بالعقل المهيمن على الحواس.

إذا اتبعنا المنهج التحليلى فى تناول تلك المواقف التى بدت غير مفهومة لموسى، كما بدت كأنها معضلات أمام الإدراك المبدئي. فسوف نجد ثلاثة مستويات، هي: الفعل، والمعضلة/الإشكالية، ثم التعليل العقلي.

فإذا نظرنا فى الموقف الأول المتعلق بالسفينة، نجد الآتي:

أولا ـ الفعل غير المعقول ظاهريا:

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا).

ثانيا ـ الإشكالية:

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا).

ثالثا ـ الحكمة العقلية تتجلى مع تعليل العقل السببي:

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا).

إن فعل خرق السفينة يبدو للوهلة الأولى وكأنه فعل غير أخلاقي، فهو عند الإدراك المبدئى للعقل الظاهرى الذى يفكر طبقا لمنطق الأسباب القريبة يظهر كفعل تخريبى تترتب عليه نتائج وخيمة، إنه إفساد لممتلكات الغير، وفعل منكر يؤدى إلى الغرق وإزهاق الأرواح.

إن هذا الحكم السريع على الفعل، يكشف طريقة كثير من الناس الموجودين فى كل المجتمعات والعصور الذين يحكمون على الأفعال من ظاهرها من دون أن تكون لديهم معلومات كافية عن الموضوع! إنهم يسيئون الظن، كما أنهم لا يعرفون السياق العام للفعل، إنهم يقفون فحسب عند السياق الخاص والمعلومات المباشرة، ويظنون أنهم يملكون عقولا حكيمة، ثم يأخذون فى المزايدة على غيرهم فى اتباع المبادئ الأخلاقية.

إنهم عالمون ومفتون وأخلاقيون! وتجدهم فى عصرنا ينبحون على منابر التواصل الاجتماعى متبعين أسوأ الأساليب القاتلة: أسلوب قتل الشخصية! مخاطبين الآخر: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، لقد اقترفت جريمة منكرة عظيمة!

إنهم يسارعون بالإدانة مكتفين بمعلومة واحدة، أو بضع معلومات، أو عبارة مسجلة (أو مكتوبة) مقتطعة من سياقها، أو مشهد فيديو مجتزأ أو محرف، أو ورقة منزوعة من مجموعة أوراق، ثم يزعمون أنهم يملكون الدليل الدامغ من السمع والبصر! وهنا نتذكر مرة أخرى قول شكسبير:«لا ترى كل ما تراه عينك ولا تسمع كل ما تسمعه أذنك».

بطبيعة الحال، إن موسى عليه السلام نبى كريم ليس مثل أولئك الموجودين فى زماننا، ولم يقع فى تلك الصورة الفجة المعاصرة، لكن تداعى المعانى أوصلنا إلى تلك الصورة الفجة للذين يتخذون من الأحكام المتسرعة «مبدأ حياة» فى عصرنا. وجاء القرآن الكريم لكل العصور محذرا الجميع من الأحكام المتسرعة التى تكتفى بالظاهر وحده، ولا يصبرقائلوها حتى يعرفوا جميع المعلومات والمعطيات، ولذا فإنهم لن يصلوا أبدا إلى الحكمة العقلية التى لا تُدرك إلا بعد صبر على التعلم:(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)، تلك الحكمة العقلية التى لا تتجلى إلا بتأويل عقلي:(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

فما معنى التأويل؟

إجابة العقل عن معضلات موسى ٢

الأحد ٢٤ مارس ٢٠٢٤ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

دوما الظاهر وحده لا يكفي، ولابد من التعمق فيما هو أبعد منه حتى يمكن إدراك الحقائق، وهنا يأتى دور العقل فى عملية الإدراك التى تذهب إلى أبعد مما تدركه الحواس. وعندما يعجز إدراك الشخص العادي، يأتى دور الحكيم لكى يقوم بتأويل النص أو تأويل الظاهرة أو الموقف، هنا يقول العبد الصالح لموسى: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

فما معنى التأويل؟

التأويل له معان كثيرة، ويحتاج مقالات عديدة، ربما يحين وقتها لاحقا، ويمكن أن نقول بإيجاز شديد، إن التأويل هو الإيضاح لما هو أبعد من الظاهر، أبعد من المحسوس، أبعد من الفهم الظاهرى للنصوص أو الرموز أو الأحلام والرؤى أو الوقائع أو المواقف. فالتأويل هو الوقوف على يَؤُولُ إِلَيْهِ الشَّيْء، أى يرجع إليه الشيء، سواء بمعرفة ما وراءه، أو ما يرمز إليه، أو أسبابه وعلله الأولى، أو الحكمة والمراد منه.

وغالبا ما يشير المفسرون إلى أن التأويل يتعلق فقط بتفسير النصوص بالذهاب إلى المعنى الباطن لها،أو صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى آخر تحتمله. كما يشمل التأويل تفسير أى شيء ينطوى على رموز مثل الأحلام والرؤى. ومن وجهة نظرنا أن التأويل ليس مقصورا فقط على ذلك، بل يشمل أيضا تفسير الوقائع الخارجية والظواهر لفهم حقيقتها الكامنة وراء المحسوس منها عن طريق ذكر العلل الأولى غير المباشرة، كما يشمل التأويل فهم المواقف الإنسانية والتصرفات فى ضوء مقاصدها والحكمة منها.

وفى حالة مواقف العبد الصالح التى لم يفهمها موسى الذى يقف عند الظاهر وحده، يكون المعنى الثانى هو المقصود، أى تفسير تلك المواقف أو الوقائع الحادثة بمعرفة ما يكمن وراءها، والوقوف على الحكمة منها، تلك الحكمة التى لا تظهر بكل مباشر، بل تختفى وراء الظاهر. ومن هنا فالتأويل يستخدم أيضا فى فهم وقائع الحياة.

وهنا يمكن فهم حادثة خرق السفينة بكل بساطة: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (الكهف: ٧٩).

لكن الموقف الثانى من العبد الصالح أصعب وأكثر معضلة أمام موسى، بل لا يزال يمثل معضلة أمام الكثيرين حتى يومنا هذا. أقول هذا بصراحة مطلقة، فلايزال فى نفوس البعض منه شيء حتى الآن على الرغم من التأويل الذى قدمه العبد الصالح!

ويمكن صياغة الموقف الثانى للعبد الصالح على النحو التالي:

أولا- الفعل غير المعقول ظاهريا:

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ..)

ثانيا- المعضلة:

(.. قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا).

ثالثا- الحكمة العقلية تتجلى مع تأويل العقل السببى للحادثة:

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)، (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

بدا لموسى أن حادثة قتل الغلام حادثة مزعجة، وتسرع بالجزم بأن نفسه نفس زكية طاهرة دون أن يكون لديه أى معلومات عنه ولا عن أفعاله وسيرته، ودون أن يكون لديه أى معرفة بالنتائج البالغة الضرر المترتبة على أفعاله المستمرة!

أما أولئك الذين لا يزال فى أنفسهم شيء حتى الآن؛ فذلك لأنهم يتصورون أن الغلام طفل لم يصل إلى مرحلة التكليف بعد، كما فهموا أن العقاب تم على فعل لم يحدث، بل على فعل مستقبلى متوقع، كما اعتقدوا أن الحكم بالقتل إنما هو حكم فردى من العبد الصالح!

ومما جعل البعض يتوجسون من مخالفة ذلك للعدالة، أمور عديدة، من أهمها:

الأمر الأول: أن التفسيرات التقليدية فى التراث، فسرت «الغلام» على أنه الطفل غير البالغ! فكيف يعاقب كائن غير مكلف بأقصى عقوبة؟

الأمر الثاني: أنه بدا من التفاسير التراثية المختلفة، أنها فهمت أن العقاب على فعل لم يحدث، وإنما على فعل مستقبلى متوقع، فكيف يتم العقاب على فعل لم يحدث؟!

الأمر الثالث: أن التفاسير القديمة تصورت أن قرار قتل الغلام هو قرار «فردي» من العبد الصالح وليس قرارا «جماعيا».

ولعل السبب فى كل هذا الخلط، هو المرويات التراثية غير الثابتة تاريخيا بيقين، والتى مصدرها الرئيس هو الإسرائيليات التى اغتر بها الرواة، والاعتماد عليها فى تفسير القرآن الحكيم، بل الغريب أن بعض المفسرين الذين يجعلون اللغة مرجعية فى التفسير، لم يفعلوا ذلك هذه المرة؛ ولم يحاولوا فهم معنى «الغلام» فى أصلها اللغوي، ولا فى ضوء استخدامها فى لغة العرب القدماء؛ حيث صنعت تلك المرويات التراثية غشاوة كثيفة على الإدراك المباشر لمعانى القرآن.

لكن إذا أولنا القرآن بالقرآن فى حدود الاستخدام اللغوى للألفاظ، وفى ضوء السياق، فسوف نجد أن تلك التفسيرات ما هى إلا ابتعاد عن المقاصد القرآنية البينة.

ويبدو أن تأويل العبد الصالح للموقف الثانى من مواقفه بحاجة إلى تأويل إضافي، فما «تأويل» التأويل؟

الإجابة فى المقال القادم إن شاء الله تعالى.

إجابة العقل عن معضلات موسى ٣

الأحد ٢١ أبريل ٢٠٢٤ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا يستطيع العقل أن يتقبل فكرة توقيع عقوبة الإعدام على طفل لم يبلغ سن التكليف، كما لا يستطيع العقل أن يتقبل فكرة أن العبد الصالح قتل الغلام دون الاقتراف الفعلى لجرم يستوجب عقوبة الإعدام، كما أن العقل لا يتقبل فكرة إصدار حكم فردى بالإعدام. لاسيما وأن القرآن الكريم قد عودنا على ضرورة استيفاء شروط الإنصاف والعدالة.. ومنها: بلوغ سن التكليف، وحرية الإرادة، ووقوع الجريمة بالفعل، واكتمال الأركان المادية والمعنوية للجريمة، وملاءمة العقاب للجريمة.

وهنا لابد من «تأويل» التأويل الذى قدمه العبد الصالح، من خلال إعادة فهم المعضلة الناشئة عن اعتبار المفسرين القدماء الغلام طفلا؟

المعنى اللغوى لمصطلح «الغلام»، إذا رجعنا لمعجم «تاج العروس» وجدناه يعرف (الغلام) بأنه (الطار الشارب)، ويطلق أيضا على (الكهل). قال ابن الأعرابي: يقال: فلان غلام الناس وإن كان كهلا، كقولك: فلان فتى العسكر وإن كان شيخا، (تاج العروس، ٣٣/ ١٧٦). وأيضا: هو (الشاب العريض)، (تاج العروس، ٣٣/ ١٧٧). (واغتلم) إذا هاج من الشهوة. وفى المحكم: إذا (غلب شهوة)، (تاج العروس، ٣٣/ ١٧٥).

وفى مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٦٨٣): الغلام: الطار الشارب. واغتلم الفحل غلمة: هاج من شهوة الضراب. و(يقال: إن) الغيلم: الشاب. وفى المخصص (١/ ٤٩٨): الغُلْمة - شَهْوة النِّكاح من الرِّجَال والنِّساء، رجُل مِغْليم وغِلِّيم وامرأةٌ غِلِّيم. وفى (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ٨/ ٤٩٨٦): الغُلْمة: الاسم من الاغتلام، وهو شهوة الجماع. وفى الكتاب نفسه (٨/ ٤٩٩٤): غَلِم: غُلْمَةً وغَلَما: أى اشتهى النكاح. والمعنى نفسه فى كتاب (إكمال الإعلام بتثليث الكلام، ٢/ ٤٦٨). وهذه المعانى واردة كلها عند ابن منظور فى (لسان العرب) وفى غيره من المعاجم العربية الكبرى.

ومن هذه الأمثلة السريعة من كتب اللغة، يتبين أن الغلام ليس هو الطفل، بل الغلام هو الذى يتجاوز مرحلة الطفولة إلى سن البلوغ، سن التكليف، وهو السن الذى يصل فيه إلى مرحلة اكتمال الوظائف الجنسية، ومؤشر ذلك حدوث الشهوة الجنسية وعلامتها الجسمية. وهو ما يطلق عليه سن المراهقة، ودليل هذا ما ذكره ابن الجوزى فى كتابه (تقويم اللسان، ص ١٤٣)، قال: «وتقول للمراهق: يا غُلام، وهو «فُعَال» من «الغُلْمة» وهى «شدة شهوة النكاح». كما تبين كتب اللغة أعلاه أن لفظ الغلام يطلق على الشاب، كما يطلق على الكهل.

إذن واضح جدا فى اللغة أن الغلام ليس طفلا، بل هو الذى بلغ جنسيا ووصل إلى سن التكليف الذى يعرف فيه التمييز بين الصواب والخطأ، ويتحمل المسئولية عن أفعاله. وتأسيسا على المعنى اللغوي، يصبح من غير المعقول تماما حديث المفسرين القدماء عن كونه طفلا!

يؤيد فهمنا اللغوى هذا أن الأطفال فى نصوص القرآن الصريحة مسموح لهم بأن يروا بعض عورات النساء وزينتهن، لكن لا يجوز لهم ذلك عند وصولهم إلى سن البلوغ، وسن البلوغ هو سن الْحُلُمَ، سن الغلمة، سن شهوة الجماع، وفى هذا السن يصبح الطفل غلاما، فهذا هو الحد الفاصل بين مرحلة الطفولة غير المكلفة، ومرحلة البلوغ التى يتحول فيها الطفل إلى غلام يقع عليه التكليف؛ يقول القرآن الكريم: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِالطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) (النور: ٣١).

وفى سورة النور أيضا دليل آخر على ذلك؛ حيث قرر القرآن أن «الْحُلُمَ» (البلوغ الجنسي) هو سن التكليف: (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النور: ٥٩). فالأطفال إذا وصلوا سن الحلم عليهم الاستئذان، حيث وصلوا إلى سن التكليف وغادروا مرحلة الطفولة بالبلوغ الذى تم تحديد معياره بسن بلوغ الغلمة (شهوة الجماع).

إذن فإن الغلام الذى تم توقيع حكم الإعدام عليه، ليس طفلا وإنما هو مراهق بالغ وصل إلى مرحلة التكليف. وقد يكون شابًا عريضًا كما ذكرت كتب اللغة أعلاه. وقررت الشريعة أن سن التكليف وتحمل المسئولية عن الأفعال هو سن البلوغ، أى سن حدوث الشهوة الجنسية، وهو سن حدوث الغلمة، الذى يصبح الذكر عنده غلامًا. فهو السن الذى يعرف فيه الإنسان التمييز بين الصواب والخطأ، ويتحمل المسئولية عن أفعاله.

إذن، نجزم بخطأ التفسيرات التقليدية فى التراث التى قدمها المفسرون لمعنى «الغلام»على أنه الطفل غير البالغ! فالله (العدل والعدالة) لا يخطئ، والعبد الصالح الذى امتدح الله أفعاله لم يخطئ فى هذا الفعل، لكن المفسرين يخطئون. الدين صح وصحيح، أما الخطاب الدينى البشرى فقد يخطئ وقد يصيب.

ومع أننى أرى أن الغلام المقتول ليس طفلا، فإنى أحب أن أحيط القارئ الكريم، أن توقيع العقوبات على الأطفال فى بعض الجنايات، لا تزال تقره قوانين الولايات المتحدة الأمريكية وثلاث عشرة دولة أخرى، حيث تجيز الحكم على الأطفال بأقصى عقوبة عندها وهى الحبس المؤبد.

هذا هو تأويل التأويل، بالرجوع إلى معنى كلمة غلام فى اللغة والنصوص القرآنية ومقاصد الشرع. والغريب أن المفسرين القدماء ساروا خلف الحكايات الإسرائيلية، واعتبروا الغلام طفلا غير مكلف! متجاهلين تمامًا المعانى اللغوية لكلمة الغلام وغير ملتفتين للنصوص القرآنية فى تحديد الفرق بين الطفل والغلام، فضلا عن عدم الالتفات إلى مقاصد الشرع من حفظ الضروريات الخمس: الدين، النفس، العقل، العرض، والمال.

إجابة العقل عن معضلات موسى (٤)

الأحد ٥ مايو ٢٠٢٤ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن الحق لا يُعرف بالأغلبية، بل المعيار هو البرهان العقلى أو الرياضى أو التجريبى، المعيار هو التصورات غير المتناقضة ذاتيا، والمتسقة مع المبادئ البديهية للعقل كما حددتها العلوم الرياضية والمنطقية، والمتطابقة مع الواقع الخارجى كما حددته العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية. المعيار هو «السلطان البين».. الدليل الواضح..

ومن روائع سورة الكهف، أنها بينت أن الحق لا يُعرف بالأغلبية، ونظرت إلى العقل المنطقى بوصفه طريق الحصول على البرهان (= السلطان البين).

وأبطلت السورة الكريمة طريقة التقليد، ورفضت اتباع روح القطيع، كما استهجنت اعتبار أقوال ومعتقدات المجتمع حجة على الحق؛ فلا يمكن اعتبار المجتمع مقياسا للحقيقة.. فأغلب المجتمعات تغرد بعيدا عن التفكير العلمى، وتعشش الأساطير المتناقضة فى عقلها الجمعي.

لذلك حذرت سورة الكهف من أخذ العقائد عن طريق التقليد؛ فلا ينبغى أن يقوم الإيمان على مجرد تصديق الشائع فى المجتمع، ولا ينبغى أن يتأسس الإيمان على مجرد التسليم بالموروث عن الآباء والأجداد مهما كانت مكانتهم.

إن المعيار هو الدليل البرهانى والعقل النقدى، وليس المرويات المنقولة عن الآباء والأجداد، وهذا ما أكده القرآن الكريم مرارا وتكرارا عبر سورة الكهف، بل وعبر سوره الكريمة كلها. إن الإيمان بدون برهان واضح وعلم دقيق سابق، سوف يوقع المرء فى اللامعقول: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ»، (الكهف: ٥).

هنا يقف البرهان فى مواجهة الموروث.. هنا يقف العلم الدقيق فى مواجهة المرويات الظنية.. هنا يقف العقل النقدى فى مواجهة التقليد.. هنا يقف المعقول فى مواجهة اللامعقول..

إن هؤلاء الشباب الذين آمنوا بحقيقة الإله الواحد الأحد المنزه عن مشابهة أى شيء، أدركوا أن الحق لا يُعرف بالأغلبية، ورفضوا تقليد اتجاهات المجتمع السائدة، فالأغلبية ليست معيارا للحقيقة: «هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بسلطان بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، (الكهف: ١٥)..

إن القول بتعدد الآلهة كذب عقلي؛ لأنه مستحيل منطقيا: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، (الأنبياء: ٢٢).. هذا هو المنطق العقلى الواضح فى القول بوحدانية الإله، وقام البرهان العقلى على استحالة نقيضه (=تعدد الآلهة).. وعليه يتحتم رفض النقيض الكاذب حتى لو قالت به الأغلبية.

وهذه الطريقة فى البرهنة التى يستخدمها القرآن الكريم فى سورة الأنبياء يُطلق عليها فى علم المنطق البرهان غير المباشر، والمقصود به كما يقول الكسندرا غيتمانوفا فى كتابه عن المنطق هو: «برهان تؤسس فيه صحة المطلوب عن طريق إثبات كذب نقيض المطلوب antithesis».

فصحة المطلوب هو القول بإله واحد، وإثبات ذلك عن طريق البرهان غير المباشر يكون عن طريق إثبات كذب النقيض وهو « تعدد الآلهة».. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، (الأنبياء: ٢٢).. فمن المحال تعدد الآلهة لأنه سوف يحدث نزاع بين إرادات الآلهة، فكل منهم سوف يريد شيئا غير الذى يريده الآخر، وسوف يختلفون فى القرارات وطريقة تدبير شئون الكون. وبالتالى سوف يفسد الكون لوجود تمانع: (... إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)، (المؤمنون:٩١).

ولما كان نظام الكون يتميز بطريقة واحدة، ويظهر التناسق والوحدة والانسجام والتدبير فى تركيبه وقوانينه، فإن النظام المنسجم الموحد يدل على مدبر موحد.. وهذه الطريقة فى الصياغة والاستدلال تعد برهانا مباشرا على التوحيد.

أما البرهان غير المباشر، فيمكن صياغته بطريقة مبسطة على النحو التالي:

أولا- لو كان هناك أكثر من إله لتعددت الأنظمة وحدث صراع فى طريقة الخلق وفى طريقة الإدارة والتدبير، وحاول كل إله التغلب على الإله الآخر، ولن ينتظم عمل الكون، وفسدت السموات والأرض «مقدمة أولى»..

ثانيا- لا يوجد تعدد فى أنظمة الكون ولا يوجد خلل ولا فساد فى طريقة عمله (مقدمة ثانية)..

ثالثا- إذن لا يمكن القول بتعدد الآلهة (نتيجة لزومية).

هكذا تم إثبات كذب نقيض المطلوب. ويطلق على هذا اسم «برهان الخلف»، كما يطلق عليه أيضا اسم «دليل التمانع».

وبلغة بسيطة يمكن أن نستعير من الأمثال الشعبية المثل القائل «المركب التى بها رئيسان تغرق»، وهو مثل مسلم به، ويعبر عن البداهة العقلية، وأثبتته التجارب البشرية. وبهذه البرهنة يكون تم إثبات استحالة القضية المناقضة لقضية الوحدانية وهى «تعدد الآلهة»؛ وعلى هذا تم إثبات صحة المطلوب وهو القول بـ «إله واحد».

وهذا يدل، فيما يدل، على اعتماد القرآن الكريم، لطريق البرهان، سواء البرهان المباشر أو البرهان غير المباشر.. فى مواجهة المعايير الزائفة، مثل معيار الأغلبية، ومعيار التقليد، معيار ما عليه المجتمع... إلخ. وعلى الرغم من وضوح رفض سورة الكهف لهذه المعايير الباطلة، فلا يزال الكثيرون فى مجتمعاتنا يوظفونها فى حياتهم ومواقفهم وطريقة استدلالهم، مع أنهم حريصون على قراءة سورة الكهف كل يوم جمعة!

ومن هنا يتضح أن المشكلة، فى عقول الذين يقرأون بلا تعقل ولا تدبر!